مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 14ع 10.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

القراءة التأويلية للتصوف الإسلامي في كتابات محمد شوقي الزين

The interpretive reading of Islamic Sufism in the writings of Muhammad Shawqi Al-Zein

رابح رزيق Rabah Rezig * rabahrezig6@gmail.com	فلسفة إسلامية	جامعة محمد الصديق بن يحيى – جيجل -/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-014-001-007	ORCID:

الإرسال: 2024/07/06 **القبول:** 2024/11/26 **النشر:** 2025/01/16

**

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى محاولة تسليط الضوء على جانبٍ من إجتهادات الكاتب والباحث الجزائري محمد شوقي الزين، وهو الجانب المتعلق بالقراءة المعاصرة التي يقدمها للتراث الصوفي وذلك من خلال الاستثمار في التأويل منهجاً ونظريةً معرفيةً، وقد دفعنا إلى الكتابة في هذا الموضوع اهتمامنا بالقراءات المعاصرة للتراث الإسلامي، واعتقادنا بأن مثل هذه الاجتهادات تبدو جادةً ومُثمرة، ومن أجل التوصل إلى نتائج موضوعية اعتمدنا على النصوص الأصلية للكاتب، وأمعنا النظر والتأمل فيها معتمدين على المنهج الوصفي والتحليلي، مع محاولة استنباط المواقف العلنية والخفيّة في هذه النصوص، ومن أبرز ما توصلنا إليه من نتائج هو أن القراءة التأويلية التي اعتمدها شوقي الزين في قراءة نصوص التراث الصوفي هي قراءة تعمل على محاولة تجاوز النزعات الابستيمولوجية الصارمة والعقلانيات النقدية، التي كانت إلى وقتٍ قريب أشبه بالموضة في الفكر العربي المعاصر، نحو تفعيل قراءة عصرية تتمثل في التأويل الذي ينفتح على الاختلاف والمغايرة ويقّر بتعدد الدلالات والمعاني في النص الواحد.

الكلمات المفتاحية: قراءة، تأويل، تصوف، تراث، محمد شوقي الزين.

Abstract:

This research aims to shed light on one aspect of the efforts of the Algerian writer and researcher Mohamed Shawqi Al-Zain, which is the aspect related to the contemporary reading that he presents of the Sufi heritage through investing in interpretation as a method and cognitive theory. What prompted us to write on this topic is our interest in contemporary readings of the Islamic heritage, and our belief that such efforts seem serious and fruitful. In order to reach objective results, we relied on the original texts of the writer, and we looked closely and contemplated them, relying on the descriptive and analytical method, while trying to deduce the public and hidden positions in these texts. One of the most prominent results we reached is that the interpretive reading that Shawqi Al-Zain adopted in reading the texts of the Sufi heritage is a reading that works to try to overcome the strict epistemological tendencies and critical rationalities, which until recently were similar to the fashion in contemporary Arab thought, towards activating a modern reading represented in the interpretation that opens up to difference and heterogeneity and acknowledges the multiplicity of connotations and meanings in a single text.

Keywords: reading, Hermeneutics, sophism, Patrimony, Muhammad Shawqi Al-Zein.

**

* - الباحث المُرسل: rabahrezig6@gmail.com

***-مقدمة:**

يندرج هذا البحث في سياق القراءات المعاصرة لتراث الفلسفة الإسلامية بمختلف فروعها وهي القراءات التي يمكن أن نلاحظ فيها التعدد والاختلاف إلى حد التناقض في كثير من الأحيان رغم أن نص التراث العربي والإسلامي نصٌ واحد، لكن ذلك -من وجهة نظر فلسفية- ليس عيبا بقدر ما هو اختلاف لربما يعكس إبداعية هذه القراءات التي لا يمكن أن تكون مثمرة وأصيلة إلا إذا قرأت هذا التراث من جوانبه المختلفة وبشكل متجدد، بعيدا عن التقليد والتنميط والتبسيط، إن الاختلاف هو ما يمنح هذه القراءات ديمومتها وتجددها الإبداعي.

في هذا السياق أيضا تبرز إحدى أهم القراءات المعاصرة للفلسفة الإسلامية، وللتصوف الإسلامي على وجه التحديد، وهي القراة التأويلية التي يتبناها الكاتب والباحث الجزائري محمد شوقي الزين، الذي نلاحظ أنه لا يدعي أنه صاحب مشروع فكري على شاكلة مشاريع الفكر العربي المعاصر، لأن مفهومه للمشروع الفلسفي يختلف أساسا عن الشائع، فبالنسبة إليه ثمة إمكانية دائما في إيجاد وحدة نسقية لما قد يبدو لنا مبعثرا أو متناقضا من المناهج والمعارف، لذلك لا عجب أن نجده قارئا لدريدا *Jacques Derrida* (1930- 2004) من خلال عرفانية ابن عربي، ومطبقا لتفكيكية دريدا وتأويلية غادمير *Hans-Georg Gadamer* (1900- 2002) على تصوف ابن عربي، وقارئا لهؤلاء جميعا من خلال الأدوات النقدية والاجتماعية التي يستقيها من فكر ميشال دو سارتو *Michel de Certeau* (1925- 1986).

من هنا شكَّل التراث الصوفي العربي والإسلامي بالنسبة لشوقي الزين أحد المجالات المعرفية الهامة التي سعى إلى قراءتها من منظورٍ معاصر مطبِّقاً الآليات التأويلية عليها، وفيما يلي نحاول الكشف عن هذه القراءة من خلال مرحلتين: الأولى: تأسيسٌ نظري لمفهوم التأويل عند شوقي الزين، والمرحلة الثانية: هي جانب تطبيقي لقراءة شوقي الزين التأويلية على التصوف الإسلامي.

إشكالية البحث:

عند الاطلاع على القراءات المعاصرة لتراث الفلسفة الإسلامية بمختلف فروعها، سنلاحظ منذ الوهلة الأولى أن ثمة تعدداً في هذه القراءات إلى حد التناقض، رغم أن نص التراث الفلسفي نص واحد، فهل هذا التعدد والاختلاف شيء ايجابي أم أنه عائقٌ يمنعنا عن التوصل إلى نتائج ذات جدوى بغية الدفع بعجلة التنمية والنهضة المرجوة؟، كيف ينظر محمد شوقي الزين إلى هذا الاشكال؟، ثم من جهة أخرى من الملاحظ كذلك أن القراءة التأويلية للتراث الإسلامي لم تُعط الأهمية التي ينبغي أن تحظى بها في فضاء الفكر العربي بوجه عام وفي البحث الأكاديمي الجزائري بوجه خاص.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

في هذا السياق تتفرع عن الإشكالية المركزية أسئلة فرعية من قبيل: كيف يمكن وصف خارطة التأويل في الفكر العربي المعاصر؟ ما مفهوم التأويل عند محمد شوقي الزين؟ ما هي خصائص التأويل الصوفي لديه؟ ما حدود التأويل الصوفي من منظوره؟ ما طبيعة القراءة التي يقدمها؟ وما مدى اختلافها عن غيرها من القراءات؟ ما مدى أهمية الوعي التأويلي في قراءة التراث حسب شوقي الزين؟.

منهج البحث:

ومن أجل الإجابة عن الإشكالية المحورية للبحث، والأسئلة المُتفرعة عنها، اِعتمدنا بشكل أساس على مؤلفات محمد شوقي الزين وأمعنا النظر والتأمل فيها معتمدين على المنهج الوصفي والتحليلي، مع محاولة استنباط المواقف العلنية والخفيّة في نصوص الكاتب، وقد حاولنا في كل ذلك الإبتعاد عن الذاتية وتوخي الموضوعية قدر الإمكان، مع اِحساسنا بالمسؤولية والأمانة العلمية في توصيل الأفكار وعرضها كما هي، كاملة دون تضخيم، ودون اختزال أو تبسيط مخل.

1. القراءات التأويلية في الفكر العربي المعاصر:

ليس التأويل في الثقافة العربية والإسلامية أمرا جديدا، كما أنه ليس كذلك بالنسبة للثقافة الغربية، لكن الجديد يتعلق بتطوير هذا المفهوم بوتيرة متسارعة خلال العقود الأخيرة، وتوسيع دائرته ليشمل مجالات معرفية مختلفة كالدراسات النقدية والأدبية والفلسفية والتاريخية، بعد أن كان مقتصرا على النصوص الدينية واللاهوتية، ثم إن التأويل قد تفرعت عنه مصطلحات كثيرة من قبيل الفهم والتفسير والشرح والهرمينوطيقا (أنظر التعليق رقم 2) وكلها ترتبط بتضمينات دلالية معينة، تتداخل مع بعضها أحيانا وتتناقض أو تتطابق أحيانا أخرى.

وعندما نقول "القراءة التأويلية في الفكر العربي المعاصر" فنحن نقصد بذلك مجمل القراءات التي تتوسل منهج التأويل (أنظر التعليق رقم 3) كآلية أساسية وجوهرية بغية تطبيقها على نصوص التراث العربي والإسلامي، وخاصة النصوص الدينية، وفي هذا السياق سنجد محاولاتٍ لقراءة بعض نصوص الفلسفة الإسلامية وفق هذا المنهج، وبالأخص في ميدان العرفان والتصوف وعلم الكلام، ولعل من أبرز الباحثين الذين اشتغلوا على هذا النوع من القراءة، نصر حامد أبو زيد (1943- 2010) ، وعلي حرب (1941- ـــ)، ويمكن أن نضيف إليهما محمد أركون (1928- 2010) ومطاع صفدي (1929- 2016) وغيرهم.

ميزة هذه القراءة، كما يرى ممثلوها، أنها تحاول استبعاد التصنيفات الشائعة والمألوفة للأفكار والنصوص، وللعلماء والمؤلفين، إلى عقلي ونقلي، أو أصيل ودخيل، أو أصالة وحداثة،

أو مثالي ومادي، أو ذاتي وموضوعي، أو علمي وغير علمي، أو رجعي وتقديمي، لأن هذه القراءة بحسبهم تتعدى تلك التصنيفات، بل تتأوَّلها وتعيد بذلك تعريف المصطلحات والمفاهيم (حرب، ع، 2007، صفحة 17)، بمعنى أن القراءة التأويلية للتراث عند هؤلاء لا تنظر إلى الحقيقة على أنها قالبٌ جامدٌ تمت صياغته مرةً واحدة وفقط، بل إنَّ الحقيقة من وجهه النظر التأويلية «تنبني على الفرق والتعدد وتفترض الاتساع في اللفظ وفيض المعنى، لذلك من غير الممكن أن تكون الحقيقة أحاديةَ الجانب أو أن يكون التأويل نهائيا» (حرب، ع، 2007، صفحة 17).

ورغم الأهمية التي يسعي بعض الباحثين إثباتها للتأويلية إلا أنَّها لا تلقى رواجاً في الثقافة العربية المعاصر، فكل من نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون يتفقان علي أن الممارسة التأويلية لم تعرف تطورا كبيرا في الثقافة العربية المعاصرة، يقول أركون في ذلك: «إن علم التأويل كَفنٍ للتساؤل أو طرح الأسئلة والقيمة التثقيفية لصراع التأويلات فيما بينها لم يدخل بعد إلى الساحة العربية الإسلامية، إنهما لم يدخلا ساحة البحث العلمي أو التعليم الجامعي، اللهم إلا بعض الاستثناءات القليلة الخاصة ببعض الشخصيات الجزئية ولكن المجبرة على التزام الحيطة والحذر المستمر» (أركون، م، 1999، صفحة 261).

ومن جانبه حاول نصر حامد أبو زيد التأكيد على أصالة التأويل في التراث العربي والإسلامي، ورأى أن التأويل أو التفسير بالرأي كان منهجاً متداولاً بين الفقهاء وأهل الحديث والمتكلمين وغيرهم، وقد ساد واستخدم التأويل لفهم وتفسير النص الديني دون أن يشكل ذلك حساسيةً من نوع ما، في الوقت الذي كان فيه لفظ التفسير أقل تداولا، لكن مصطلح التأويل في التراث العربي والإسلامي بحسب أبو زيد «بدأ يتراجع بالتدرج ويفقد دلالته المحايدة ويكتسب دلالة سلبية، وذلك في سياق عمليات التطور والنمو الاجتماعيين وما يصاحبها عادة من صراع فكري وسياسي» (أبو زيد، ن، 2000، ص 174)، من هنا ارتبط التأويل بفرقٍ محددة وهامشية في التراث العربي والإسلامي من قبيل المعتزلة والشيعة والمتصوفة، وتم إلحاق دلالة "التحريف" بدلالة "التأويل"، ليتقدم التفسير على التأويل ويتبناه غالبية العلماء المسلمين، لذلك تكون العودة إلى الممارسة التأويلية اليوم رجوعا إلى الأصل لا خروجا عنه، وتصحيحا للمسار.

في الوقت الذي يربط فيه علي حرب التأويل بالاختلاف وتعدد القراءات، فالنص أيًّا كان، من وجهة النظر التأويلية يخضع لتعدد القراءات باعتبار أن القراءة هي عملية مفتوحة على الممكن دوما، ومثلما أن الكتابة لن تبلغ نهايتها فكذلك القراءة لن تبلغ نهايتها أيضا، وإذا شئنا القول فإن القراءة التأويلية يمكن أن نفهمها بوضعها في مقابل المعرفة، فإذا كانت المعرفة بمعناها التقليدي أو الحداثي، تهتم بالوصف والعبارة، أو بالكشف والبرهنة، فإن القراءة

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

تتعدى ذلك إلى المجاز والإشارة، وتُعنى بالأثر والفاعلية، أي بما يتركه الكلام من الأصداء والضلال أو بما يولده من التفاعلات والتداعيات، ومن هنا تنفتح القراءة على ألاعيب اللغة وآليات التأويل، أو على أنماط السرد وسياقات الكلام، أو على استراتيجيات المحادثة وقواعد المداولة. (حرب، ع، 2005، صفحة 11).

إن الممارسة التأويلية في الفكر العربي المعاصر ما تزال تشق طريقها رويدا رويدا نحو ارسائها كثقافةٍ متداولة، رغم الصعوبات، ولعل الأهمية التي تكتسيها هذه الممارسة هي أنها تؤمن بالاختلاف والنقد وتطرح الأسئلة الأكثر أهمية وإلحاحا من قبيل سؤال الحقيقة والمعنى، وسؤال الذات والتاريخ، وهي تتجنب الاختزال والتنميط وتستبعد الاستئثار بالحقيقة محاولةً تجاوز النزعات الابستيمولوجية، أو العلموية، التي تتميز بالصرامة، والتي لم تعد تُعطي نتائج فاعلة، بحسب التأويليين.

2. مفهوم التأويل عند شوقي الزين أو التأويل بوصفه فناً باروكياً: (أنظر التعليق رقم 4).

مفهوم التأويل عند شوقي الزين يختلف بشكل جزئي عما هو شائع، فهو لا ينظر إليه كما لو أنه علم، أو منهجية بحثية صارمة، إنما يتجنب هذه التوصيفات، ويؤكد باستمرار على أن التأويل ما هو إلا فن، له غاياته المحددة، ويتأسس على مجموعة من المفاهيم، ومن المعلوم أن ثمة فروقات بين ما هو علم وما هو فن، ليس من حيث طبيعة الموضوعات والمناهج فقط، ولكن أيضا من حيث الغايات والنتائج التي يفضي إليها كل ميدان، كما أن ما هو علم قابل للقياس بينما ما هو فن غير قابل للقياس، الأول صارم والثاني منفتح على التعدد والاختلاف.

إن التأويل فنٌ يصفه شوقي الزين بأنه «أجمل مغامرة فلسفية معاصرة» (الزين، م، 2015، صفحة 300)، وله غايات محددة تتمثل في فحص النصوص داخليا وربطها بسياقها العام خارجيا إضافة إلى الطموح إلى درجة العالمية، على اعتبار أن التأويل يمثل تجاوزا للتصورات الكلاسيكية في فهم النصوص ومستويات الحقيقة التي تتضمنه ويسعى إلى فهم الظواهر الاجتماعية والسلوكات والأحداث التاريخية والإبداعات الفنية والجمالية (الزين، م، 1999، دون صفحة)، ومن هنا فإن القراءة التأويلية لا تتوقف عند التلقي المباشر للنص أو الخطاب أو الحدث، بل تسعى إلى المساهمة في انتاج وجهة نظر أو معنى للنص، سواء كان هذا المعنى يقيني أو محتمل.

ولا شك أن هذا النوع من القراءة يكون ذو بعدين بالضرورة، الأول يتعلق بالمنظور الذي يتحدث منه صاحب النص، والثاني يتعلق بالمنظور الذي يفهمه أو يتحدث منه قارئ النص، ولا تكون القراءة التأويلية هنا قراءة مثمرة وناجحة إلا إذا استطاعت تقديم خطاب ومعنى

يؤلف بين البعدين في بناء واحد يكون منسجما ومتماسكا، لكن ذلك لن يكون إلا إذا أخذت الممارسة التأويلية بعين الاعتبار بعض المفاهيم الهامة من قبيل: التجربة المعيشة والحوار والفهم والتراث (أنظر التعليق رقم 5).

إن شوقي الزين يرى بأن نهاية الحداثة التي يشهدها الفكر الغربي اليوم، وإن كانت لا تبشر بسقوط قيم الحداثة مثل الحرية والتقدم والعدالة والأنوار، إلا أنها انتقلت إلى مرحلة جديدة تتميز «بالاحتكام إلى ممارسة فكرية تجسدت في التأويل ومقاربة وجودية تجلت في العدمية، فالتأويل هو لحظة الانتقال من الحداثة إلى العدمية، لا بالمعنى الذي تصبح فيه هذه الأخيرة مجرد تيه وعماء، وإنما بالمعنى الذي يتعذر فيه "التأسيس" و"التأصيل"» (الزين، م، 2005، صفحة 25)، بمعنى أن العدمية هنا تعني عدم الركون إلى ما هو أساس أو أصل، ولا تعني بالضرورة التيه والعمى، ثم إنه من خلال التأويل تتحول هذه العدمية إلى حوار وتلاقي، أي أنه يتم الانتقال من ضيق الحداثة إلى رحابة وأفق التأويل والتلاقي والحوار.

وإذا كانت الحداثة قد بنيت على مفاهيم الأصل والأساس، من خلال البناء على أصول الثقافة الاغريقية القائمة على المنطق الصارم من جهة، وقيم العلم الحديث من جهة ثانية، فإننا اليوم نشهد ازاحات وتفكيكات لكل ما هو أصل وأساس ثابت سواء في المعرفة والوجود أو في القيم كذلك، يقول شوقي الزين: «الحقيقة في ثقافة ما بعد الحداثة هي فعل تأويلي بالمعنى الذي تنفتح فيه على الامكان ولا تنحو فيه إلى التأسيس ومعناه أن فعل التأسيس يمحو تعدد الامكان لأنه فعل الضرورة والمطابقة، أما الفعل التأويلي فهو حقيقة تاريخية وتجربة إنسانية يتبدى في صراع التأويلات بتعبير بول ريكور Paul Ricœur (1913- 2005) واختلاف الأذواق وتباين المذاهب أو المشارب أو المآرب» (الزين، م، 2005، صفحة 29).

بهذا المعنى يجعل شوقي الزين من التأويل فضاءً رحباً لإنتاج المعاني والدلالات والصور، وهذه السّعة التي يتميز بها التأويل تحتضن بداخلها التفكيك والسيميولوجيا والرمزية والتداولية والتحليل النفسي التي تُعد جميعا أقاليم من مقاطعة التأويل، وبشكل خاص يمثل التفكيك الإقليم الأكثر حضورا عند شوقي الزين وهو يفكر في التأويل، لأنه من منظوره لا يمكن عزل التفكيك عن التأويل، «فإذا اعتبرنا أن التأويل برهاني قائم على التفسير العقلاني والتنسيق السيميائي مع الرغبة في بلوغ المعنى، فإن التفكيك ما هو سوى عدول التأويل نحو مستويات منحنية ومتعرجة من الجغرافيا النصية» (الزين، م، 2015، صفحة 271).

وإذا اعتبرنا أن التأويل يبحث عن الجميل فإن التفكيك يبتغي طريق الجليل، والجميل والجليل ليسا متناقضين، بقدر ما هما متضايفان (أنظر التعليق رقم 6) وأحدهما معكوس للآخر لا نقيضه، تماما كاليد اليمنى واليد اليسرى، يقول شوقي الزين: «حتى لا نظلم التفكيك كما هو محروس اليوم بمحاكم التفتيش في الأكاديميات، أقول بأنه يقرأ الجليل من الوقائع

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

والنصوص، الشيء الذي يبهر ويدهش، الشيء الذي ينطوي على اللامعقول، ليس بالمعنى المبتذل في نقيض العقل، ولكن فقط المعكوس، ومعكوس الشيء ليس نقيضه ولكن مقابله أو مضايفه» (الزين، م، 2015، صفحة 272).

والتأويل عند شوقي الزين نوعان، الأول يصطلح عليه التأويل الأيقونوفيلي، والثاني يسميه التأويل الأيقونكليستي، الأول رحماني منفتح ومتعدد، والثاني تأويل أجوف للكلمات والحروف، أما التأويل الايقونوفيلي فهو الذي «يعطي كل ذي حق حقه يعترف بالطبيعة المركبة والملتبسة للوجود واللغة فيساير كل الامكانات المحتملة، كل الصور الممكنة ليأخذ بها كلها دون تمييز عنصري أو اقصاء نظري» (الزين، م، 2016، صفحة 430)، هذا على العكس من التأويل الأقونكلستي الذي يقف فقط عند أُحادية الحرف، وأحادية الكلمة دون أن يُجاوز ذلك إلى ما يمكن أن تمنحه اللغة من معاني، إنه تأويل إقصائي وتعسفي يعمل على قمع ما هو ممكن من الوجوه المتعددة التي يمكن أن تمنحها اللغة.

بهذا المعنى سنجد أن التأويل الذي يؤمن به شوقي الزين هو تأويلٌ لامتناهي بحيث أنه لا يبحث عن الانسجام داخل النص، بقدر ما يبحث عن الاختلاف والمغايرة (أنظر التعليق رقم 7)، محاولا التأكيد على تعدد الصور والدلالات والرموز، وغياب الحدود والفواصل للمعاني التي تمنحها الألفاظ والحروف، لذلك فإن «مزية التأويل في أنه يبحث عن شيء أثيري ورقيق لمجاوزة الصارم والمتصلب في البحوث الابستيمولوجية التي تكتفي بالربط البنيوي بين عناصر النسق والكشف عن الأمر الذي يجعل هذه العلاقة ممكنة، هيكلياً وتاريخياً» (الزين، م، 2015، صفحة 300)، (الزين شوقي، م، 2015، صفحة 300)، إن التأويل فنٌ "باروكي" له اِمتلاؤه وتعبئته، التي يستمدها من الإيمان بالاختلاف والمغايرة واتساع المعنى.

3. خصائص التأويل الصوفي:

اشتغل شوقي الزين بشكل مكثف على ميدان التصوف في التراث العربي والإسلامي ويبدو أن اختاره الانحياز إلى قراءة التراث الصوفي دُوناً عن غيره من التراث، الفلسفي مثلاً، راجعٌ إلى الطبيعة التي يتميز بها بحيث يمكن القول إنَّ التراث الصوفي، من خلال لغته، يبدو محتضنا للتأويل أكثر من غيره، فإذا أردنا أن نبحث عن "نظرية" للتأويل في الثقافة العربية والإسلامية فإن التصوف هو ميدانها وحاضنتها الأولى، يقول شوقي الزين: «قراءة المعجم الصوفي من شأنه أن يبيّن خصوصية اللغة الصوفية التي تنزاح عن القول الشائع بقدرتها على النحت والكناية والمجاز، وتنزاح أيضاً عن اللغات الأخرى الكلامية والفلسفية» (الزين، م، د ت، صفحة 11 - 12)، من هنا يصبح التراث الصوفي أكثر راهنيةً بالنسبة لشوقي الزين.

وضمن هذا التراث الفسيح انحاز شوقي الزين بشكل واضح إلى مدونة محي الدين ابن عربي (558- 638 ه)، الذي رأى فيه أنه يمثل البينيَّة أو البرزخية في تاريخ الظاهرة الروحية في الثقافة الإسلامية، يقول شوقي: «ينبغي الظفر بفكرةٍ جوهرية في تأويل ابن عربي وهو أنه برزخيُّ البنيَّة: بين التصوف والعرفان، بين الظاهر والباطن، بين الشريعة والحقيقة... هذه البينيَّة أو البرزخية هي واصلةٌ بقدر ما هي فاصلة، وهذا هو سر الصعوبة المذهبية لدى ابن عربي» (الزين، م، 2016، صفحة 23)، فابن عربي يصعب تصنيفه على أساسٍ مذهبي أو أيديولوجي، فهو صوفيٌ سُنِّي، كما هو عرفانيٌ شيعي، إذا جاز لنا القول، هذه البينيَّة تتأسس على الرحمة ابتداءً وانتهاءً، بحيث أنها تسعى إلى التوازن وإقامة الاعتدال، الاعتدال في جميع المستويات والأصعدة، على صعيد الروح والمادة، وعلى صعيد الإنسان والقيّم والوجود والمعرفة.

إنه وفي الوقت الذي نجد فيه عدداً من المفكرين العرب يأخذون ابن رشد (520- 595ه) كمرجعية تراثية في مشاريعهم الفكرية المعاصرة، أمثال الجابري (1935- 2010) وغيره، وبعضهم يعود إلى تراث ابن سينا (370- 427ه) كما في المشرق وإيران المعاصرة، فإن محمد شوقي الزين يخرج عن هذا "التقليد" إلى الأخذ بالتصوف الإسلامي وبفلسفة ابن عربي العرفانية لتكون المنطلق نحو بناء فلسفة عربية معاصرة تتميز بأنها تأخذ الاختلاف والمغايرة بعين الاعتبار بدل الانغلاق وادعاء احتكار المعنى والحقيقة، ويبرر شوقي الزين هذا التوجه بقوله: «لربما أخذي بابن عربي بدلاً من ابن رشد هو طريقة لاشعورية في ميلي نحو الباروكي بدلا من الكلاسيكي، في اعتمادي على المجازي والسردي والخيالي عوض المنطقي والبرهاني والحجاجي» (الزين، م، 2015، صفحة 275).

ومن خلال بحث شوقي الزين في التأويل الصوفي للقرآن عند ابن عربي، الذي اشتغل عليه كأطروحة دكتوراه، توصل إلى تقرير نتيجة مفادها أن التأويل الصوفي يتميز بثلاثة خصائص وهي: أ) كونه رحماني ب) كونه قرآني ج) كونه وجودي.

أ) التأويل الصوفي بوصفه تأويلا رحمانيا:

يعتبر شوقي الزين أن كل تأويل لا يحمل في ذاته معنى الرحمة فهو تأويل أجوف وغير مجدي، ولا يتعدى كونه تفسير آلي وميكانيكي للكلمات والحروف، ويجد شوقي لذلك تبريراً ليس فقط في المرجعية التراثية التي يُروى فيها الحديث القائل: "اختلاف أمتي رحمة"، وهو الحديث الذي نقله السيوطي (849 – 911ه) في "تدريب الراوي"، إنما أيضا من باب ما يسميه شوقي الزين "الرجئية الأنطولوجية" (أنظر التعليق رقم 8) وهي «التي تقول إن التأويل في انعطافه الدائري بين المبتدأ والمنتهى، لا بد أن يحمل سمات الرحمة، لأن في انعطافه الدائري ثمة إحاطة، وكل إحاطةٍ هي عناية وكل عناية هي رحمة واسعة مثل الضَّم الأمومي للطفولة البريئة» (الزين، م، 2016، صفحة 428).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

وإذا نظرنا في تصوف ابن عربي على وجه الخصوص فإننا سنجد أنه تصوف رحماني، كما يرى شوقي الزين، فابن عربي يجعل من الرحمة غايته ومآله، ولا شك في أن تصوفه يبتغي التنوع والاختلاف ويؤمن بالوُسع في الدلالة والفهم متجنبا بذلك احتكار المعنى ودوال النص ومدلولاته، يقول شوقي الزين: «يمكنني القول دون مواربة ولا أغالي في ذلك بأن نصوص ابن عربي تؤكد على أن التأويل الصوفي ما هو سوى "المآل إلى الرحمة الشاملة"، في جميع النصوص التي نقرأها عند المتصوف الأندلسي، نجد دائما أن كلمة مآل تصاحب الرحمة، والمآل هو تركيبة كامنة في التأويل بوصفه رؤية حدسية وكشفية لما سيأتي» (الزين، م، 2016، صفحة 427)، ولذلك إذا شئنا أن نعطي التأويل الصوفي نعتا ما فإنه يمكننا القول إن الصفة الأولى والأساسية للتأويل الصوفي أنه تأويل رحماني.

ب) التأويل الصوفي بوصفه تأويلا قرآنيا:

يقصد شوقي الزين بذلك أن التأويل الصوفي ينسج على منوال النص القرآني لغة ومعنى، بحيث إن المبالغة التي يحملها النص القرآني يمكن أن نجدها أيضا في النص الصوفي، يقول شوقي الزين: «التأويل الصوفي تأويلٌ قرآني لأن مادته الآيات والسور، من أجل صوغ الأشكال والصور... إنه صناعة تأويلية انطلاقا من مادة القرآن» (الزين، م، 2016، صفحة 433).

ج) التأويل الصوفي بوصفه تأويلا وجوديا:

القصد من ذلك أن التأويل الصوفي لا يتوقف عند كونه مسألة تقنية تكشف ما في النص من جوانب معرفية ودلالات لغوية، لكنه يتعدى ذلك ليكون له غايةٌ وجودية تنطلق من الذات ومن الوجدان، يقول شوقي الزين: «التأويل الصوفي هو النظر في منتهى ما يصل إليه الوجود من رقائق متشابكة، وحقائق منعطفة على الذات، التأويل الصوفي تأويل وجودي لأن أقصى ما يصل إليه الوجود هو الوجدان» (الزين، م، 2016، الصفحات 433 - 434)، ويقول أيضاً: «مسوغ التأويل هو الصور المتعددة والمتناثرة التي تغمر الوجود وتعمر أركانه وكائناته، فحيثما هناك صورة فثمة تأويل» (الزين، م، 2015، صفحة 19).

4. حدود التأويل الصوفي:

يرى شوقي الزين أن التأويل في قراءة المتن الصوفي، ونصوص ابن عربي على وجه الخصوص، لا يتوقف فقط عند عتبة الخيال إنما يتجاوز ذلك إلى المعارف القلبية وطبيعة الخطاب واللغة، ذلك أن «التأويل في مذهب ابن عربي شيء مسترسل لا يغادر العارف طرفة عين، فالتأويل في الخيال هو تعبير وارجاع، وفي القلب هو كشف وعلم، وفي الخطاب هو تفسير وتفصيل، له وظائف متعددة ومتلونة حسب المستويات والعتبات» (الزين، م، 2015، صفحة 19)، بمعنى أن التأويل له القابلية لينطبق على كل المستويات والعتبات الوجودية والمعرفية، بما في ذلك الحلم أو الخيال، القلب أو الكشف، الخطاب أو التفسير.

ويستدل شوقي الزين بأن ابن عربي نفسه لا يفتأ يردد الحديث النبوي: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"، ولا يفتأ يعبر عن أن الوجود مليء بالخيال وبتعدد الصور اللانهائية سواء كانت صورا حسية أو عقلية أو خيالية أو روحية أو إلهية، يقول ابن عربي: «إذا ارتقى الإنسان في درجِ المعرفة علم أنه نائم في حال اليقظة المعهودة وأن الأمر الذي هو فيه رؤيا إيمانا وكشفا» (ابن عربي، م، د ت، صفحة 379)، من هنا يكون مسوغ التأويل، بحسب شوقي الزين «هو الصور المتعددة والمتناثرة التي تغمر الوجود وتعمر أركانه وكائناته، فحيثما هناك صورة فثمة تأويل» (الزين، م، 2015، صفحة 19).

إن شوقي الزين، في قراءته للتراث الصوفي، يستلهم من دريدا الذي يعد أبرز ممثل عن "التأويل اللامتناهي"، يستلهم الاختلاف والمغايرة والتعدد والآفاق اللامحدودة، التي يحملها النص الصوفي، إنه ينسج على منوال هنري كوربان Henry Korbin (1903- 1978) أيضا الذي يعتبر التأويل ليس مجرد وسيلة فقط، ولكنه غاية ومسألة جوهرية، فحتى بعد بلوغ العلم يبقى التأويل حاضرا لأنه ليس مجرد نمط في المعرفة ولكنه أيضا نمط في الوجود.

هذا في الوقت الذي يضع فيه نصر حامد أبو زيد للتأويل الصوفي حدودا، بحيث يرى أن التأويل وسيلة لبلوغ المعرفة، وإدراك العلم الذي يكون مقره القلب، وهو يرتبط بالخيال أساسا على اعتبار أن الخيال يتعارض مع العلم الصحيح، لذلك هو في حاجة إلى التأويل باستمرار حتى نصل إلى العلم الصحيح الذي يختص به القلب، وعلاقة الخيال بالقلب كعلاقة الظاهر بالباطن ولا يكون التأويل إلا مع الظاهر فإذا بلغنا المعارف الباطنية انتفى التأويل، يقول نصر حامد: «تحتاج المعرفة الخيالية إلى التأويل، بينما لا تحتاج المعرفة القلبية إلى مثل هذا التأويل» (أبو زيد، ن، 1983، صفحة 211).

5. الكنان: مُجاوزة للتصوف والعرفان:

يميل شوقي الزين في لغته إلى نحت العبارات والكلمات بشكل لطيف، وهو ما يمنح نصوصه طابعا خاصا يتميز بكثرة الصور التعبيرية المثقلة بالدلالات، إنها تعابير مميزة تحتاج جهدا ووعياً خاصا لإدراكها وفهم مكنوناتها، كما أنها تحتاج إلى معرفة واطلاع بمخرجات الفكر الغربي المعاصر على وجه الخصوص، وهذا الأسلوب في الكتابة الذي يتميز به شوقي الزين يفصح عن شخصية مفكر متفتح، يؤمن بحرية الاختلاف والمغايرة، التي تشكل مظهرا من مظاهر الإبداع والتجديد.

ومن المصطلحات الخاصة التي يقدمها شوقي الزين، من خلال قراءته للتراث الصوفي العربي والإسلامي، مصطلح "الكنان" الذي هو في حقيقته مقابلٌ للكلمة الفرنسية "ميستيك" mystique يقول شوقي الزين: «الكنان هو نحتٌ لغوي يكافئ نوعا ما المنطوق mystique باختزانه على مدلول السر واللغز والتكتم (mystère)» (الزين، م، د ت، صفحة 14)، فإذا كان العرفان يميل نحو الكشف والإسفار فان الكنان، في مفهوم شوقي الزين، طابعه المميز له هو الستر والوقاية والإلغاز، وفي القاموس العربي نجد أن الكِّن والكنَّة والكنان تعني وِقاء كل شيء وستره، ما يعني أن «الكنان يميل نحو الستر والوقاية، لذلك تأتي العبارات ملغزة والقصائد مفعمة بالرموز القابلة لتأويلات متعددة وأحيانا متناقضة» (الزين، م، د ت، صفحة 15).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

إن الكنان بالنسبة لشوقي الزين هو نوعٌ من التُقية، يتخذ من الرموز ستارا أو قناعا لدرأ التُهم التي قد تطاله، وهذه الاستراتيجية كثيرا ما كان يلجأ إليها الصوفية من خلال تغليف قصائدهم ونصوصهم بحجب الرمز والاستعارة، ويضرب شوقي الزين مثالا بابن عربي الذي انهالت عليه التُهم عندما كتب "ترجمان الأشواق" في الحب الصوفي، فكان مرغما على أن يشرح المغزى من الرموز الموضوعة فكتب "ذخائر الأعلاق"، أي أن ابن عربي، بحسب شوقي الزين، كان عرفانيا في "ترجمان الأشواق" ثم أصبح "كنِّيا" في "ذخائر الأعلاق".

تجد هذه الاستراتيجية الصوفية التي تعمل على صيانة الأسرار وعدم إفشائها إلا لأهلها حمايةً للعلم المكنون في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- المروي عن أبي هريرة الذي قال: «حفظت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعائين، أمَّا أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البلعوم» (البخاري، م، حديث رقم 120)، وبالنسبة لشوقي الزين فإنه يرى أن «الكنان من شأنه أن ينقذ التصوف والعرفان من الصراع الإيديولوجي المحتدم، يفصلهما عن الانتماء الطائفي، ليرجع إليهما الاستحقاق العلمي بربطهما بالتربة الأصلية وهي الإشارة في تجاوز ذاتي للعبارة، هي السر في بطون الكلمة واستبطان العالم» (الزين، م، د ت، صفحة 34)، ذلك أن شوقي الزين يرى أن الظاهرة الروحية في الفكر الإسلامي لم تسلم من مما أسماه "العبث الإيديولوجي" الذي اِنتظم تاريخيا بين تصوفٍ مجاله الفضاء السني، وعرفانٍ انتمى إلى الفضاء الشيعي.

يقول شوقي الزين: «وحده الكنان يضمن التوازن ويدرأ الاسراف الكائن في العرفان بحراً عميقاً وفي التصوف أرضاً صلبة، ويعيد إليهما الاعتدال المفهومي، بأن يفكر فيهما من خارج السجن الإيديولوجي والإشتراط السياسي والاجتماعي، ما يريده الكنان هو إرجاع الاستحقاق للظاهرة الروحية في توازنها البديهي بين الحرف والمعنى، بين الشريعة والحقيقة، بين الظاهر والباطن، لكن ليس هذا التوازن مجرد أخلاقياتٍ وعظية، إنه نحوياتٌ وتأويلات» (الزين، م، د ت، صفحة 35)، بمعنى أن شوقي الزين يراهن على النظر في الأشكال اللغوية والشروط الفهمية للظاهرة الروحية، إنه يراهن على التأويل، كما يراهن على الاختلاف والمغايرة، واتساع المعاني والدلالات.

بالرغم من أن شوقي الزين يدرك أن التصوف والعرفان في السياق الإسلامي أصبحا اليوم أكثر رسوخاً بفعل التقاليد والاستعمالات والأحكام المسبقة والمهيمنة حولهما التي طالتهما عبر تاريخهما الطويل، وبفعل ثِقل اللغة والاستعمالات المنطوقة حولهما كذلك، ولذلك يبدو من الصعب القيام بعملية إزاحةٍ لكل تلك التشكُلات الصلبة حول التصوف والعرفان، «ومن الصعب أيضا الارتقاء بالكنان إلى مصاف الاستعمال الجديد، المجرد من اللباس الإيديولوجي والمرتدي للخرقة المعرفية التي ورثها عن الأصل النابع من صلبه وهو مجال السر والصمت الكامن في الكنان، وهو حقيقة الظاهرة الروحية في كل التجليات الدينية أو الفنية أو الأقيانوسية» (الزين، م، دت ، صفحة 34).

إن شوقي الزين يعتبر أن الوعظيات الأخلاقية قد أضرت بمنطوقي التصوف والعرفان، باعتبار أنها حجبت عنا، كما يقول شوقي الزين، البعد التجريبي بالمعنى الروحي لكلمة تجربة، وبالمعنى

التجريبي لكلمة "روح" بأوسع معاني هذه الكلمة، الروح التي يرى شوقي الزين أنها لا تختصر فقط في البعد الديني، وإنما تنفتح أيضا على تجربة الفن والموسيقى والاحساس والجسد وهذه المعاني غيبتها الوعظيات اللأخلاقية في سياق الثقافة الإسلامية، لذلك فإن «الكنان هو إعادة قراءة بينيَّة للظاهرة الروحية، قراءة تقف على التخوم، لا توفيقية ولا هي تلفيقية، وإنما مجرد وقوف عند الحدود الفاصلة/ الواصلة بين العوالم والظواهر، هي موقف من العالم الروحي بعدة بينيَّة، عادلة لأنها اعتدالية، سامية وعادية، سماوية وأرضية، عقلية وذوقية» (الزين، م، د ت، صفحة 36).

6. أهمية الوعي التأويلي في قراءة التراث:

إلى وقت قريب كانت النزعات الابستيمولوجية والعقلانيات النقدية أشبه بالموضة في الفكر العربي المعاصر، لكنها اليوم لم تعد تستجيب، إستجابةً كاملة، لمعطيات اللحظة الراهنة، لذلك نحن في حاجة إلى قراءة جديدة، بحسب شوقي الزين، قراءة تحاول أن تتجاوز العقل الابستيمولوجي القائم على التفسير إلى العقل التأويلي القائم على البحث عن المعنى وإنتاج الحقيقة، لكن ذلك لا يعني تغييب العقل الابستيمولوجي بقدر ما يعني أن شوقي الزين يبحث عن التكامل والانسجام لأنه يؤمن بالتداخل والتفاعل بين الحقول المعرفية والأدوات المنهجية المختلفة، فليس بالضرورة أن يكون الجديد نفياً للقديم.

إذن شوقي الزين لا ينفي التوجهات الابستيمولوجية "الصارمة" والعقلانيات النقدية، إنما يؤكد على عدم وجود تناقض بين الباروكي الذي يدعو إليه والكلاسيكي الذي يلتزم به غيره، ذلك أن شوقي الزين يؤمن بالمعارف المتداخلة والمنهجيات المتكاملة، يؤمن بما يسميه "التكوير" بأن تتكور المعارف والمناهج بعضها على بعض وفقا للسياقات والاستعمالات، ويعود إلى ابن عربي ليضرب به المثل، فابن عربي بالنسبة لشوقي الزين لم يكن تصوفه باروكيا من ألفه إلى يائه، لقد كان تصوفا عامرا بالخيال والعرفان والانفعال، ولكنه من جانب آخر كان تصوفا استدلاليا وبرهانيا كما في بعض المحطات من "الفتوحات المكية" وغيرها (أنظر التعليق رقم 9)، يقول شوقي الزين مؤكدا على التكامل المعرفي، حتى بين ما يبدو متناقضا من المعارف والمناهج: «تبين لي بأن القراءة هي في الحقيقة تداخلية أو تفاعلية وليست خطية، فيمكننا أن نقرأ شخصية أو فكرة أو مذهبا بالنتائج المعرفية والمفهومية التي نجنيها من قراءة شخصيات أو أفكار أو مذاهب أخرى، لأن الفكر يتغذى من ذاته أياً كانت الاختلافات المذهبية والجغرافية والتاريخية والثقافية» (الزين، م، 2015، صفحة 294).

ما يعنيه شوقي الزين بضرورة تجاوز النزعات الابستيمولوجية والعقلانيات النقدية ما هو إلا نزوع نحو التأكيد على أهمية وضرورة الوعي التأويلي، ذلك أن النصوص التراثية لا توجد بها حلول جاهزة للمشكلات التي تشغل بالنا وتعترضنا في لحظتنا الراهنة، من هنا تبرز الحاجة إلى الوعي التأويلي من أجل توسيع حركة التراث بنقده وتثويره وتطويعه ليتماشى مع الحاضر، «فالوعي التأويلي يعكس ظهور التراث وانصهار آفاق الماضي والحاضر في حقيقة الفهم، وهو يضمن إنارة وتنوير حاضرنا الراهن وحالتنا الواقعية» (الزين، م، 2015، صفحة 44).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

إن البعض قد يرى في التأويل المعاصر منهجا غربيا وغريبا بحيث تبرز معه إشكالية العلاقة بين الحقيقة والمنهج والعقبات التي تطرحها هذه العلاقة كون خطابنا العربي الذي يشتغل على التراث يستعير مناهج غربية لها فضاؤها المعرفي والتاريخي والجغرافي الذي يختلف عن فضائنا العربي والإسلامي، ولقائل أن يقول إن المنهج والحقيقة لا ينفكان عن بعضهما، ففي الوقت الذي نستعير فيه مناهج غربية من أجل قراءة التراث العربي والإسلامي فنحن لا نستعير المناهج الغربية فقط ولكن أيضا نستعير الحقائق التي تعبر عنها هذه المناهج والتي هي حقائق غربية.

وحول هذه الإشكالية يعتقد شوقي الزين أن المناهج الغربية المستعارة إلى فضاء الفكر العربي المعاصر، حتى وإن كان لها خصوصيتها المعرفية والتاريخية والجغرافية، فهي تختلف باختلاف الثقافات والسياقات، «فإذا كان الفكر الغربي يرى في مناهجه التي أبدعها وبلورها طيلة تاريخه الثقافي والفكري تعبر "فعلا" عن حقائقه وتصوراته كما انكشفت له وتنكشف له الآن بأساليب وطرائق أخرى، فإن الفكر العربي المعاصر يتصور هذه المناهج بنمط آخر كما أنه يوظفها بأسلوب مختلف ومغاير» (الزين، م، 2015، صفحة 47)، إن شوقي الزين يرى في هذه المناهج قوالب صورية ونظرية قابلة لإحتواء مضامين فكرية مغايرة، إنها مناهج وظيفية تختلف تطبيقاتها باختلاف السياقات والثقافات، كما تختلف تبعا لذلك الحقائق التي تعبر عنها والمعاني والفهوم التي تكشفها، وفي السياق ذاته يقول على حرب عن الحقيقة: «إنها ليست يقينا معرفيا بقدر ما هي منظومة تأويلية تفسر وتوضح، ولكنها تخضع للفحص والجدال، وتقبل هي نفسها التفسير والتأويل» (حرب، ع، 1993، صفحة 91).

إن الخطاب النقدي للفكر العربي المعاصر، بحسب شوقي الزين، هو خطاب بحث مستميت عن الحقيقة، الحقيقة التي صنعت تاريخ التراث من جهة، والحقيقة التي أنتجها التراث من خلال اشتغاله على الذات عبر الممارسات النقدية والتأويلية طوال تاريخه الطويل الحافل بالترجمة والنقد والتفسير والمقارنة والتحليل والتعليق، فالتراث هو الذي أسس للوعي التأويلي رغم أنه اليوم، في الفكر العربي المعاصر، وعي غير مكتمل، وهو في حاجة إلى جهود أخرى، من أجل التمكين له، يقول شوقي الزين: «مهما اختلفت مشاريع القراءة في هذا الخطاب، وهي اختلافات تنم عن نوعية وطبيعة الآليات والمناهج الموظفة، فهي تشترك جميعها في إتيكا البحث عن المكنون لا عن المفقود، لأن الأمر الذي نتوخى البحث عنه وإنتاج حقيقته ليس وراءنا وإنما هو في طيات حاضرنا وحضورنا، تكفي رؤية متأنية ووعي نقدي وتأويلي في استخراجه وبعث الحياة والحركة فيه» (الزين، م، 2015، صفحة 48).

والحقيقة الماضوية، التي يمكن أن نكتشفها في نصوص التراث من خلال العملية التأويلية، كما يرى شوقي الزين، قد لا تتعارض مع الحقيقة كما هي في الحاضر، «فالحقيقتان وجهان لنفس الغاية، هما نتاج "انبثاق الآفاق" ليس فقط انصهار أو ذوبان أو حلول الحقيقة التراثية المنكشفة والحقيقة الراهنية المنتجة، وإنما أيضا تواقت الظهور والانبثاق حتى نحافظ على الاختلاف الأصلي بين الحقيقتين» (الزين، م، 2015، صفحة 46)، من هنا تصبح القراءة التأويلية للتراث عملية "حوارية"

تفيد التواصل والاستمرار بين الحاضر والماضي، ذلك أن وظيفة التاريخ الفعلية يمكن أن تكشف لنال عن أن التراث ما هو إلا كائن حي، يحيا ضمن وسط تاريخ وجغرافي ولغوي معين، ويتغذى من خلال عمليات التأويل المختلفة التي تحاول إخضاعه للقراءة والتحليل، ومن هنا «يتأسس بموجب هذا التعايش بين التراث والحاضر نوع من إتيكا الحوار" ينفي عن الجانبين سلطة المعنى الذي يحمله التراث، ودوغمائية إضفاء الدلالة التي تنحو نحوها قوى الحاضر» (الزين، م، 2015، صفحة 44).

إن دعوة شوقي الزين إلى ضرورة استثمار العقل التأويلي في قراءة التراث، وخاصة في قراءة الموروث الصوفي، تنطلق من أساسا من الطبيعة المميزة للقراءة التأويلية، إذ أنها هي القراءة الوحيدة، حسب شوقي الزين، التي من شأنها أن تكشف لنا عن ما هو متواري في غياهب التاريخ وأغوار الذهنيات من بِنيات ومعاني ودلالات ورموز، فالقراءة التأويلية التي يدعو إليها شوقي الزين ليست قراءة تعليمية أو تلقينية، بقدر ما هي قراءة تهدف إلى إبراز قيمٍ جديدة ومفاهيم تثويرية وتأسيسية.

***- خاتمة:**

في الختام يمكننا أن نقول إن شوقي الزين، وإن كان ليس صاحب مشروع فلسفي، بمعنى المشروع، إلا أن الأهمية التي يحظى بها تكمن في محاولته تفعيل العقل التأويلي ليكون في طليعة البحث بدلا من النزعات الابستيمولوجية، أو العلموية، التي تتميز بالصرامة غالبا، والتي لم تعد تعطي نتائج ذات فاعلية بشكل كامل، إن هذه المجاوزة وهذا الانتقال الذي يتبناه شوقي الزين يعد جهدا إيجابيا ومثمرا لتحريك المياه الراكدة في الفكر العربي المعاصر، ذلك أن النزوع نحو التأويل كمنهج وكنظرية في المعرفة، من شأنه أن يعمل على محاولة تجاوز الدغمائيات المتحيزة وإدعاءات احتكار المعنى والفهم نحو تفعيل ثقافة الإيمان بالمغايرة والاختلاف.

من جانب آخر يمكننا القول أيضا أن شوقي الزين، رغم أنه يؤمن بالاختلاف والمغايرة التي يأخذها عن دريدا وعن رحمانية التصوف الإسلامي، إلا أنه ينخرط في نوع من صراع التأويلات، نجد ذلك، مثلا، وهو ينتقد القراءة التأويلية التي قدمها نصر حامد أبو زيد لابن عربي، حين يعتبر أن أبو زيد كونه لم يستطع إحاطة النص الأكبري بالعناية الفلسفية اللازمة فهو لم يعط الكلمات حقها من الكثافة النظرية، وبالتالي قد يشعر البعض أن نوع القراءة التأويلية التي يدعو إليها شوقي الزين هي "قراءة ارستقراطية" إن جاز التعبير، فهو يؤكد على أن للتأويل مراتب ومستويات ودرجات والإنسان العادي كما يسميه، أو الإنسان العامي بالتعبير الكلاسيكي، يتقيد بالظاهر ولا يستطيع مجاوزة ذلك إلى الباطن والبواطن سواء المعرفية أو الوجودية بشكل عام.

تعليقات:

1 - محمد شوقي الزين (مواليد 1972)، كاتب ومفكر جزائري، له اهتمامات بنقد الفكر الكلاسيكي والفكر المعاصر على حد سواء، حصل على الدكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية، تخصص فلسفة وتصوف، حول ابن عربي، من جامعة بروفنس بفرنسا، وله دكتوراه ثانية في الفلسفة حول الفلسفة العملية عند ميشال دو سارتو Michel De Certeau، تأثر خصوصا بعلي حرب وجاك دريدا Jacques Derrida.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

2 - هرمينوطيقا Hermemeutik: تأتي كلمة هرمينوطيقا من الفعل اليوناني Hermeneuein ويعني "يفسِّر"، والاسم Hermeneia ويعني "تفسير"، ويبدو أن كلاهما يتعلق لغويا بالإله "هرمس" Hermes، رسول آلهة الأولمب الرشيق الذي كان بحكم وظيفته يتقن لغة الآلهة، ويفهم ما يجول بخاطر هذه الكائنات الخالدة، ثم يترجم مقاصدهم، وينقلها إلى أهل الفناء من بني البشر، وعليه فإن الصلة بين خصائص الهرمينوطيقا وخصائص الإله هرمس تبدو متقاربة فالهرمينوطيقا "هرمسية" من حيث هي "فن الفهم وتأويل النصوص"، أنظر بهذا الخصوص: عادل مصطفى، فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا، مؤسسة هنداوي، مصر، د ط، 2017، ص15 وما بعدها، وأنظر أيضا: دايفيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، ترجمة: وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص21 وما بعدها.

3 - هذا لا يعني أن القراءات الأخرى لا يحظر فيها التأويل، ولكن الذي نقصده هنا هو أن القراءة التأويلية تأخذ صراحة التأويل كمنهج ضروري لقراءة الفلسفة الإسلامية، ونصوص التراث بشكل عام، في حين قد يحضر التأويل في بعض القراءات الأخرى بصورة ضمنية وغير صريحة.

4 - الباروك Baroque: هو أحد فنون عصر النهضة في أوروبا، وباختصار يمكن القول إنه فن المتناقضات، بحيث يتميز بكثرة التفاصيل ويميل إلى إظهار الحيوية والحركة ويزخر بالأشكال والألوان، وهو فن معاكس للاتجاهات الكلاسيكية التي تميل إلى محاكاة الواقع العياني وتجسيده في صور متسقة.

5 - يستلهم شوقي الزين هذه المفاهيم من البحوث التي أفرزتها اجتهادات الفكر الغربي الحديث والمعاصر، وبشكل خاص بحوث شلايرماخرSchleiermacher ودلتاي Wilhelm Dilthey وغادمير H.G.Gadar.

6 - التضايف Correlation: يعني في المنطق تقابل حدَّين، بحيث يتوقف تصور كل منهما على تصور الآخر، مثل الأبوة والبنوة، وإذا طبقنا هذا التصور على مسألة العلاقة بين التأويل والتفكيك فإنه ينبغي القول إنه لا يمكن تصور التأويل بلا تفكيك، كما لا يمكن تصور التفكيك بلا تأويل، أي أنهما لا ينفكا عن بعضهما.

7 – المغايرة Différance: هو أحد المفاهيم المستمدة من النظرية التفكيكية التي يعد دريدا Derrida ممثلها الأبرز، وترتبط المغايرة بالاختلاف ارتباط وثيقا، فهي تحيل إليه كما تحيل إلى الارجاء والرجئية، وتعمل على محاولة تجاوز الثنائيات المتعارضة من قبيل: محسوس/ مقول، جسد/ روح، دال/ مدلول...، ومن المعلوم أن شوقي الزين ارتبط بأفكار دريدا وتأثر بها، وكان دريدا بالنسبة لشوقي أكثر من أستاذ، إذ جمعت بينهما الصداقة أيضا، ولدريدا شهادة في شوقي الزين حيث اعتبره "فيلسوفا من نوعية نادرة".

8 – التفكير الرجئي: يستلهم شوقي الزين هذا المفهوم من المفكر البحريني "محمد أحمد البنكي"، ويستثمره في حديثه عن التأويل الصوفي، حيث يرى شوقي الزين أن التفكير الرجئي يعني أن الذات لا

ترجع إلى التراث وإنما تُرجئه، بمعنى تستدعيه في الحاضر وتدرجه في الآن وتدمجه في الراهن وتجدده، من أجل أن تجعله قابلا للتغير ليصبح على غير ما هو عليه.

9 - هذا التداخل الباروكي بين ما هو برهاني منطقي وعرفاني خيالي يمكن أن نعثر عليه أيضا في بعض محطات الفلسفة الإسلامية، كما عند الفارابي وابن سينا على وجه الخصوص، فرغم ما هو شائع من أن ابن سينا كان أرسطيا في فلسفته، إلا أنه من وجهة نظر أخرى عبر عن ميله إلى الفلسفة الاشراقية خاصة من خلال مؤلفاته: "منطق المشرقيين" و"حي بن يقظان" و"سلامان وأبسال"، والأمر نفسه في فلسفة الفارابي التي حاول فيها الجمع بين الحكيمين، بين أرسطو العقلاني وأفلاطون الاشراقي، وإذا أردنا أن نطبّق على ابن سينا والفارابي مفهوم الباروك الذي يعتمده شوقي الزين، فإنه يمكننا القول إن ابن سينا والفارابي كانا باروكيان في فلسفتهما، على أن ابن عربي هو الأكثر باروكية من بين رجال الفكر في سياق الثقافة الإسلامية، لذلك يجعله شوقي الزين المرجعية الأساسية لكتاباته.

**

قائمة المصادر والمراجع:

أ/ المصادر:

1 ـ شوقي الزين، محمد. (1999). الفينومينولوجيا وفن التأويل. مجلة فكر ونقد. المغرب. عدد 61.

2 ـ شوقي الزين، محمد. (2005). إزاحات فكرية. الجزائر: منشورات الاختلاف.

3 ـ شوقي الزين، محمد. (2005). التصوف، العرفان، الكنان، غربلة في المصطلح وقفزة في الرؤية. مجلة العرفان للدراسات الصوفية، الجزائر. مجلد 1. عدد 1.

4 ـ شوقي الزين، محمد. (2015). تأويلات وتفكيكات. الجزائر: منشورات الاختلاف.

5 ـ شوقي الزين، محمد. (2015). بحر أم ساحل: قراءات معاصرة في فكرة التأويل عند ابن عربي، أعمال ندوة بعنوان: "التأويل في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، تونس، أيام 11 و12 فيفري 2015.

6 ـ شوقي الزين، محمد. (2016). الصورة واللغز: التأويل الصوفي للقرآن عند محي الدين ابن عربي. المغرب: مؤمنون بلا حدود.

ب/ المراجع:

1 ـ ابن عربي، محي الدين، (د ت). الفتوحات المكية ج2. لبنان: دار صادر.

2ـ أبو زيد، نصر حامد. (1983). فلسفة التأويل. لبنان: دار التنوير.

3 ـ أبو زيد، نصر حامد. (2000). الخطاب والتأويل. لبنان: المركز الثقافي العربي.

4 ـ أركون، محمد. (1999). الفكر الأصولي و استحالة التأصيل. ترجمة: هاشم صالح. لبنان: دار الساقي.

5 ـ حرب، على. (1993). نقد الحقيقة. لبنان: المركز الثقافي العربي.

6 ـ حرب، علي. (2005). هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

7 ـ حرب، علي. (2007). التأويل والحقيقة. لبنان: دار التنوير.

8 ـ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، حديث رقم 120.